

دكتور شيخ امحمد

## محاضرة

### طاهر الحداد وجهوده الفكرية



الشيخ طاهر حداد مولود بين سنتي ( 1899- 1935 ) بتونس العاصمة .

كان تعليمه الأولي يبدأ من المدرسة قرآنية، حيث درس بها ستة سنوات .

عام 1911 انتقل بعدها إلى جمع الزيتونة ودرس الفقه الإسلامي ،ليحصل بعدها على شهادة

أهله للتوظيف كموثق للعقود.

### أعماله

- التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة
- العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية
- امرأتنا في الشريعة والمجتمع
- ديوان طاهر الحداد

عام 1920 انخرط في العمل السياسي و بالضبط في حزب الدستور ، كان هدف الحزب تحرير تونس من الوصاية الفرنسية، وشن حملة ضد مشروع قانون تجنيس التونسية وهو قانون كان هدفه إغراء النخبة بالحصول على الجنسية الفرنسية ،حيث اتفق مجموعة كبيرة من الشخصيات التونسية ،والتي حملت معها مشروع دستور تونسي ،كان أغلبهم من خرجي المدارس الفرنسية ومنتشبعين بالفكر العلماني ،وقد كلف الحداد بدعوة المواطنين إلى الإنخراط في الحزب ، ولكن سرعان ما نخرت الصراعات الداخلية داخل الحزب مما اضطر زعيمه عبد العزيز الثعالبي إلى الاستقالة ،ولم يلبث الحداد و بالضبط سنة 1923 بالاستقالة هو الآخر والبحث عن سبل جديدة من النضال .

### نشاطه النضالي

كان للكثير من الأحداث التي وقعت في فترات متتالية كبير الأثر في نمو روح وطنية مفعمة وهو في بداية حياته ،فضرب الحصار على مدينة تونس وكثير من القرى والمداشر المجاورة لها وكذا اعتقال قادة حركة الشباب التونسي أمثال علي باش حانبه وعبد العزيز الثعالبي ،وبعدها انتفاضة الفلاحين 2006 ،وأحداث الترامواي 1912 ، ثم توجت في سنة 1915 بانتفاضة الجنوب التونسي المسلحة .

وأمام هذا أنغمس الحداد في النشاط السياسي و الحقوقي ، ومحاربة سياسات الإستعمار الفرنسي لطمس الهوية التونسية والدفاع عن حقوق التونسيين ، هناك دراسات كثيرة تنزل فكر الرجل في إطار أيديولوجية محددة، فثمة باحثون يعتبرونه من رواد الإشتراكية في تونس باعتباره حلل البيئة التونسية حسب نظرة مستوحاة من المبادئ الماركسية ( أحمد خالد - الطاهر حداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن العشرين) .

وقد كان لحداد رؤية تذهب إلى اعتبار الدين الإسلامي والجنسية التونسية عنصرين لا ينفصلان، وهي رؤية محافظة تقترب من نظرة محمد رشيد رضا وعدد من المفكرين المسلمين المحافظين الذين كانوا يعتبرون الدين عماد الجنسية، ويرون أن الخروج الإرادي من جنسية إسلامية هو خروج من الملة، بل "ردة وكفر" كما قال الحداد.

قام الحداد سنة 1927 بإصدار كتاب جديد بعنوان " العمّال التونسيون وظهور الحركة النقابية " ،تناول هذا المؤلف كيفية نشأة وتطور العمالة التونسية ،لكن السلطات الإستعمارية اوقفت اصداره خوفا

من أن يثير الكتاب الروح النقابية في قلوب العمال والنقابات ، يقول في كتابه هذا "وكان سبب خروجي من بلادي ادفاعا لإحساساتي الإسلامية، فسافرت إلى بلاد الشرق من تركيا إلى مصر ثم طرابلس الغرب، ورأيت من أحوال الأمم الشرقية وحركاتهم وتطوراتهم ما جعلني أفكر في بلادي ومستقبلها، وشجعني على العمل ما رأيت من مشاهير رجالهم الذين اجتمعت بهم من العزم والحزم والنشاط " ( طاهر الحداد، العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية) .

### نشاطه الفكري

لم يكتفي الحداد بالجانب العمالي والنقابي فقط بل كان اهتمامه واسع بالجانب التربوي ، فقد كان كثير الانتقاد لطرق التعليم بالزيتونة و التي كان يرى فيها أنها تقليدية و متأخرة ، وقد كتب رسالة إلى الزيتونة وهو طالب ينتقده فيها عنونها بـ "التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة" ، ولعل هذه الرسالة أوضحت مما لا يدعو مجال للشك الطريق التنويري والعقلاني الذي سلكه الحداد في شبابه ،حيث يدعو إلى بث الروح العلميّة واحترام حرية الفكر وتغيير نمط التعليم الكلاسيكي المبني على ملأ الأدمغة بالحفظ والنقل ،معطيا أمثلة بشيخه ومعلمه محمّد النّخلي الذي كان يعتمد مبدأ الإجتهد في البحث والتدريس " لا يلزم أن نتحدث عن تاريخ هذه الكلية وما أنجبت من علماء نافعين في عصر الدول العربية فذلك ما سطره التاريخ في صحفه، غير أنه مهما كانت تلك الأساليب التي تدرس بها ثمرة ثمرًا طيبا في ذلك العصر فإنها اليوم بحكم الزمن وتطور الأحوال أصبحت قاصرة أن تبلغ بالإنسان درجة فهم الحياة المعاصرة أو أن تبلغه من وسائل العمل ما يكفيه للعيش" (طاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة).

ويعتبر كتابه التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، بمثابة دعوة إلى إصلاح منظومة التربية لجامع الزيتونة و التي زاد من قوتها الإضراب الذي شنّه الطلبة سنة 1910 يدعون فيه لإصلاح جامع الزيتونة و أدخل مواد جديدة و حديثة مثل الرياضيات و العلوم الطبيعية والكيمياء ،كما انتقد فيه الإصلاحات التي جاء بها الجامع والتي لا ترقى إلى مستوى التغيير و التجديد ، ومحاربة كل من يحاول التجديد يقول في هذا "إلى اليوم يجب أن لا يتظاهر أحد بأفكار ينسبها إلى ذاته ليعارض بها أقوال العلماء السابقين، ومجرد توهم هذا المقدار على شخص يفضي إلى الإنكار عليه ورمي عقيدته بتهم الزيف والاعتزال بالرأي " (طاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة).

من بين المواضيع الأكثر إثارة للجدل عند طاهر الحداد هو موضوع حرية المرأة ، وكان اول مرة ينشر مواضيع حول هذا الموضوع سنة 1928 بجريدة "الصّواب" ،وكانت مواضيعها تدور حول تعليم

وترقية المرأة التّونسيّة، يريد من خلال هذه الكتابات خلق تصور جديد لعملية الاصلاح الاجتماعي والتّربوي.

لقد شكلت قضية المرأة بالنسبة للحداد نقطة تحول في حياته ، فقد وصلت مطالبه في الجراة حدود المطالب بنفس حقوق الرجل ، مما يضعه في مقدمة أول من كتب في حرية المرأة و المطالب بالمساواة مع الرجل والذي جسده في كتابه الشهير " امرأتنا في الشريعة والمجتمع " الذي تم اصداره سنة 1930 ،وقد اثار ضجة كبيرة ، كانت نتائجها وخيمة على طاهر الحداد منها الغاء جميع شهاداته العلمية ،ومن سوء حظه أنها تصادفت مع أزمة كبيرة وقع فيها ملك تونس أحمد الباي الثاني وقادته السياسيين وبعض رجال الدين باحتضانهم لمؤتمر الأفارستي الذي نظّمته الكنيسة الكاثوليكية في نفس سنة صدور الكتاب ، والذي لم يدركوا ما يحمله من ابعاد نصرانية الا بعد فوات الأوان ، فكان ما اثاره كتاب الحداد من ضجة فرصة سانحة لتحويل الأضواء وغضب الشعب نحوه ، وإبراز انفسهم أنهم حماة الدين والشريعة.

أن كتاب " امرأتنا في الشريعة والمجتمع " كان بداية لجدل فقهي يدور حول الأحكام الواردة في القرآن بشأن المرأة، ولا سيّما في مسائل الشّهادة والقضاء والميراث والزّواج والطلاق، لينتقل إلى جدل فكري يتعلّق بمناهج التّفكير في المسائل الدّينية، ثمّ إلى المفاهيم والتصورات العقلية التي تحكم رؤية الأشياء وأساليب الوصول إلى المعرفة وطرق إنتاجها ، إلى أن وصل إلى مجال السياسة حيث بدأت تيارات سياسية تتفاعل مع أفكاره وتؤيدها.

تضمن كتابه الدعوة لتحرر المرأة المسلمة مما زعم أنها قيود تكبلها داخل مجتمعاتها، والمطالبة بالطلاق المدني وألا يكون من حق الرجل فقط الذي قد يسيء استخدامه ولكن يرجع فيه إلى القضاء، كما عبر عن رفضه لتعدد الزوجات معتبرا أنه سنة سيئة ورثت من أيام الجاهلية، ودعا إلى ممارسة المرأة الألعاب الرياضية وأن تقبل على هذه الألعاب وأن تسعى لمجاراة أختها الأوربية في تقوم به، انتهت هذه الأفكار إلى القانون الوضعي التونسي في مجلة الأحوال الشخصية الصادرة في 1957 حيث أقر بأهلية المرأة لتزويج نفسها مما يستحيل معه عضلها عن الزواج أو تزويجها دون رضاها.

ويشتمل كتاب "امراتنا في الشريعة والمجتمع" على قسمين رئيسيين أولهما تشريعي والآخر اجتماعي.

**القسم الاجتماعي :** يصف فيه الأسرة التونسية في أسلوب وصفي عن مظاهر و صور للأسر داخل البيوت لم تعد موجودة و انقرضت من الحياة العامة ، ويشير إلى بعض الممارسات السيئة أثرت في مستوى السعادة و الإستقرار داخل الأسر .

**القسم التشريعي :** حمل إعادة النظر في بعض التشريعات مثل حقّ الشّهادة مع الرجل، وحق ممارسة القضاء، وحرية التصرف المالي، والمساواة في الميراث ، وقيّد الحدّاد الزّواج بالفحص الطّبي قبل كتابة العقد تفاديا للأمراض التّناسلية وشدّد على منع التزويج دون سن الرشد، و إباحة الاجهاض إذا خيف على حياة الأم ، ورفض تعدّد الزّوجات حفاظا على وحدة الأسرة واستقرارها، وجعل القضاء فاصلا في قضايا الطلاق، فكان كتابه بداية حقيقية للأحوال الشخصية بتونس فيما بعد.

وأهم نقاط التي تطرق إليها الحداد في كتابه :

- رفض تعدد الزوجات .

- جعل القضاء المسؤول عن مسائل الطلاق

- المساواة بين الجنسين في التعليم

- حق المرأة في الانتخاب

- حق المرأة في الشغل والوظيفة العمومية

- اعتبار الحجاب تعقيد للمرأة و اهانة لها .

هذا أهم ما تناوله الحداد في كتابه ، وهو الأمر الذي كان سببا في ثورة الرأي العام عليه و نبذه ورفض التعامل معه ، ولم تلقى أفكاره الكثير من التأييد إلا بعد اعتلاء بورقيبة سدة الحكم حيث بدأ بإعادة دفنه بالعاصمة ، وإعادة نشر كتابه هذا ، اما عن افكاره ففي سنة 1981، صدر منشور وزاري يمنع ارتداء "الزي الطائفي" داخل الإدارات العمومية ، وإعادة النظر في القوانين و التشريعات القضائية والأحوال المدنية في قضايا الأسرة والطلاق و أخذت تونس في رسم سياسة الانفتاح على العالم الغربي وتبني العلمانية في أكمل صورها.

---

اختلف حوله الكثير من المفكرين بين مؤيد وبين معارض لأفكاره فنجد طه حسين بعد أن قرأ كتابه قال فيه " لقد سبق هذا الفتى قومه بقرنين " ، أما الباحث الفلسطيني فهمي جدعان الذي يتكلم عن أفكار الحداد في كتابه "أسس التقدم عند مفكري الإسلام"، بعد حديثه عن رجوع الطاهر الحداد إلى الظروف المتغيرة كمبرر لتغيير بعض أحكام الشريعة: "هل الظروف المتغيرة التي تفرض - جدلاً - تغيير الأحكام هي ظروف الانحطاط الاجتماعي في الإسلام التي أصبحت لها قوة الإلزام، أم هي ظروف المدنية الغربية التي أصبح لسلطتها هي أيضاً، بسبب الغزو الخارجي أو الداخلي المقلد، الحق في تغيير الأحكام الشرعية؟ من الواضح أن كلتا الحالتين لا تسوّغ إخضاع الشريعة لما أخضعه لها الطاهر الحداد" (فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام).

إن تعرض الحداد لهذا الكم الهائل من العداء و الضغط جعل هذا الشاب ينعزل و ينطوي على نفسه وهو الأمر الذي سبب له صدمة نفسية نجم عنها مرض قلبي أدّى إلى وفاته سنة 1935 ولما يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره.

## قائمة المصادر و المراجع

- 1- طاهر الحداد ، إمرأتنا في الشريعة و المجتمع ، تقديم محمد الحداد ، دار الكتاب المصري القاهرة ، 2011 .
- 2- طاهر الحداد، العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، الدار التونسية للنشر، تونس ، الطبعة الثالثة، 1972
- 3- طاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق محمد أنور بوسنينة ،الدار التونسية للنشر، 1981
- 4- أحمد خالد - الطاهر حداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من القرن الع ، شرين، تونس، الدار التونسية للنشر ، 1967 ،
- 5- فهمي جدعان ،أسس القدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ،دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، 1988